الحوار الديني بين أهل الذمة والمسلمين في الأندلس: قراءة في الخلفيات والدلالات والنتائج

د/ محمد الأمين ولد أن
قسم التاريخ
جامعة نواكشوط، موريتانيا

المقدمة:

تمدنا مصادر التاريخ الإسلامي الأندلسي بالكثير من المعلومات حول الحوار الديني بين المسلمين وأهل الذمة[1] (النصارى واليهود)، ودور العلماء فيه، واستخدامهم لأساليب مختلفة في إقناع الخصوم بطرق كان طابعها سلميا على الرغم من ما وجه إليهم من الشتم والنقد اللاذع الذي لا يخلو من القسوة والبذاءة.

لقد كانت الأندلس الإسلامية خليطا من الأجناس والعناصر البشرية المختلفة، ومن بين هؤلاء النصارى واليهود الذين ظلوا يشكلون مجموعة بشرية متميزة، وقد تمتعوا بحقوق وامتيازات عديدة في ظل الحكم الإسلامي الأمر الذي شجعهم على الاندفاع بشكل كبير نحو الانفتاح على المسلمين، واستطاعوا منذ الفتح الإسلامي إقامة جسور للاتصال مع المسلمين من خلال الاختلاط والاحتكاك المباشر.

حافظ اليهود والنصارى في الأندلس على ثقافتهم الدينية الخاصة بهم، التي تستمد مصادرها من كتبهم المقدسة (التوراة والإنجيل)، وبعد الفتح الإسلامي للأندلس واستقرار المسلمين فيها أخذ النصارى واليهود يتعلمون لغة العرب والانفتاح على الثقافة العربية الإسلامية من ما ساعدهم على فهم الإسلام، ومن ثم توجيه الانتقاد له، بل الافتراء عليه أحيانا، من خلال التشكيك في بعض المعتقدات الإسلامية.

وقد تصدى بعض العلماء للدفاع عن الإسلام في الأندلس ضد شبهات النصارى واليهود، ومن بينهم الفقيه الأندلسي ابن حزم الظاهري (ت456هـ/1063م)، الذي اصطنع منهجا وأسلوبا للحوار مع أصحاب الديانات، وكانت له شهرة في مراوغة الخصوم بسبب علمه الواسع واطلاعه على الكتب القديمة.

وقد تمتع أهل الذمة في الأندلس بكامل الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية وعقد مجامعهم؛ مع الاحتفاظ بكنائسهم وبيعهم التي بقيت بأيديهم بعد الفتح؛ ولم يلجأ المسلمون إلى إكراه أحد على الدخول في دينهم، لأن ذلك يخالف ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[2].

ولتأكيد الحرية الدينية للمجتمع الأندلسي بمختلف عناصره، لم يكره المسلمون أحدا على الدخول في الإسلام، بل إن بعض الجماعات قد اتجهت إلى تقبل الدين الجديد باعتباره وسيلة للخلاص والتحرر من ظلم القوط؛ إضافة إلى أنها انبهرت بقيم العدل والتسامح التي لمستها عند الفاتحين المسلمين.

ولقد سعى المسلمون عند فتح الأندلس إلى كسب رعاياهم من أهل الذمة وإقناعهم بالإسلام وذلك بمخاطبتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن عملا بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[3]، الأمر الذي ساهم في إقبال كثير من أفراد هذه الفئة على الإسلام؛ ولم يكن ذلك طمعا في المال، كما قال بعض المؤرخين الأوروبيين، بل كان اتجاها صادقا نحو هذا الدين الجديد الذي استشعروا فيه كل الخير عند ما تبينوا تسامحه الصحيح بسبب مطالعاتهم واحتكاكهم بالمسلمين.

هذا وقد أسهم علماء المسلمين بشأن كبير في مجادلة أصحاب العقائد المخالفة وبخاصة من النصارى واليهود، ومن أشهر هؤلاء اطلاعا على عقائد أهل الذمة وبيان مواطن الاختلاف بينها وبين الإسلام العالم الأندلسي ابن حزم الذي يعود إليه الفضل في الرد على اعتراضاتهم ضد الإسلام، وكذلك مجادلتهم ونقد عقائدهم الفاسدة.

يطرح العمل جملة من الأسئلة من قبيل هل كان هناك بالفعل حوار بين أصحاب الأديان في الأندلس؟ وما هي القضايا التي شملها الحوار؟ وكيف أسهم ابن حزم الظاهري وابن النغريلة اليهودي في إثرائه؟

ذلك ما سنقوم بالجواب عليه من خلال هذا العمل المتواضع الذي يكتسي أهمية خاصة لما لهذا الحوار الديني بالأندلس من أهمية كبرى حيث شكلت الأندلس أرضا خصبة لالتقاء الديانات الثلاث(الإسلام، اليهودية، النصرانية). وسنتعرض فيه لثلاثة محاور:

المحور الأول: الحوار مع النصارى في الأندلس:

النصارى هم طائفة ظلت محافظة على دينها المسيحي، على الرغم من اندماجها في الحياة الإسلامية الجديدة التي عرفتها الأندلس بعد الفتح، وهذا الاسم هو الأكثر استخداما، ومفرده (نصراني)، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا ﴾[4].

وقد تم تداول مسمى النصارى على نطاق واسع في المصادر العربية، على الرغم من وجود عدة تسميات تردد إطلاقها عليهم بين فترة وأخرى، ومن أبرز هذه التسميات: ملحدون، مشركون، علوج، وقد أطلقت في فترات زمنية مختلفة.

كان للغنى الثقافي والفكري الذي عرفته الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أثره الواضح على السجالات والحوارات التي دارت بين أصحاب الأديان في الأندلس، والتي اتسمت بالحدة والسخرية والتقريع اللفظي، رغم الابتعاد عن العنف.

ترجع أهمية الحوار الديني بين المسلمين والنصارى بالأندلس إلى أنها تعكس روح التسامح الديني الذي يكفله الإسلام لغير المسلمين عامة وللنصارى خاصة؛ إذ يعطيهم حق الدفاع عن عقائدهم والمجادلة عنها وتبيان مواقفهم واعتراضاتهم على الإسلام.

لقد ازدهرت حياة النصارى داخل البيئة الإسلامية على كل المستويات، وبخاصة على المستوى الثقافي والفكري، حيث شاركوا مشاركة فعالة في الحياة الثقافية الإسلامية، وتأثروا بفعل انفتاحهم على التراث العربي الإسلامي؛ فتعلموا الأدب واللغة العربية، الشيء الذي سهل عليهم معرفة عقائد المسلمين.

1 - نقد ابن حزم للإنجيل:

الإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه عيسى عليه السلام هدى ونور، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5].

والأناجيل أربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، بالإضافة إلى الرسائل الملحقة بها وتتضمن حسب المدون فيها: دعوة المسيح عليه السلام وتاريخه، وشيئا من دعوة أوائل النصارى، تاريخهم ورسائل دينية أخرى[6].

لقد صار عند النصارى بدل الإنجيل الواحد أربعة أناجيل يجعلونها في مقدمة كتابهم العهد الجديد، ولا ينسبون أيا منها إلى المسيح عليه السلام، وإنما هي منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا، وهذه الأناجيل تحوي شيئا من تاريخ عيسى عليه السلام حيث ذكر فيها ولادته ثم تنقلاته في الدعوة ثم نهايته بصلبه وقيامته في زعمهم ثم صعوده إلى السماء[7].

فمن المعروف أن الإنجيل كان كتابا واحدا لكن ترجمته من الأرامية إلى اللاتينية واللغات القديمة الأخرى هي التي فتحت المجال واسعا لتحريفه والعبث بمحتوياته، ولولا ذلك لما تناقض مع القرآن الكريم. وليس ادعاؤهم أن عيسى بن مريم عليه السلام هو ابن الله إلى غير ذلك من تحريفهم وكذبهم على الله؛ تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وقد عمد المحاورون إلى إبراز البراهين من الكتب المقدسة لدحض الاتهامات، لكن التسامح الذي اتسم به الإسلام هو من دفع المخالفين من نصارى ويهود إلى المفاخرة بأديانهم بل وسب الإسلام والافتراء عليه. ويعتبر ذلك دليلا على سمو الإسلام وفتحه آفاقا واسعة لكافة رعاياه في كسب المعرفة والحرية في المعتقد وهما أمران أساسيان في المساجلات الدينية.

ومن المعروف أنه توجد اختلافات ليست قليلة بين هذه الأناجيل، ويعود ذلك إلى ما تعرضت له تعاليم نبي الله عيسى عليه السلام من تغيير بيد النصارى أنفسهم.

ولا يخفى ما تعرض له كتاب الله المسمى بالإنجيل من عبث العابثين؛ فلم يسلم من التحريف بالزيادة والنقصان على مر التاريخ، وذلك مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[8].

كما تعرض أيضا للكتمان حيث لجأوا إلى إخفاء بعض أحكامه، ويشير القرآن الكريم إلى كتمان النصارى لكلام الله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[9].

ويجزم ابن حزم بتعرض الإنجيل للتبديل والتحريف؛ فيقول: «وبالجملة؛ فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلهما، وكانا محظورين على من سواهما؛ فالتبديل والتحريف مضمون فيهما»[10].

كما يقول أيضا عن الإنجيل: « إنما هي كتب أربعة مختلفة من تأليف أربعة رجال فأمكن في كل ذلك التبديل»[11].

تحدث ابن حزم في أكثر من موضع في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» عن تناقض الإنجيل بسبب ما تعرض له من تحريف، ومن ذلك أن الإنجيل الواحد تتناقض نصوص إصحاحاته مع بعضها بعضا؛ فعلى سبيل المثال جاء في أحد إصحاحات إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام تسلم مقاليد الكون حسب ادعاءات النصارى.

وفي هذا الصدد يقول ابن حزم: « وفي الباب الثالث من إنجيل يوحنا أن يحيى عليه السلام قال عن المسيح: قد رضي الأب عن الوالد وبرئ إليه بجميع الأشياء، وفي الباب الخامس من إنجيل يوحنا أيضا: ولهذا كانت اليهود تريد قتله؛ لأنه كان ليس يفسح عليهم سُنة السبت فقط، لكنه كان يدعي الله أبا ويسوي نفسه به، وبعد بيسير أن المسيح قال: كما يُحيي الأب الموتى ويقيمهم كذلك يُحيي الإبن من وافقه، وما يحكم الأب على أحد؛ لأنه برئ بالحكم إلى سليله »[12].

ويضيف ابن حزم: « هذا كفر ما قدرنا أحدا ينطق به لسانه حتى سمعناه من قبل هذا الكافر يوحنا - لعنه الله- والحمد لله رب العالمين »[13].

وفي تصورنا أن هذا الكلام لم يكن إلا من الزيادات والترجمات التي اعترت الكتب المقدسة في فترات سابقة وجاءت لغرض واضح يتمثل في تطويع الدين وإخضاعه لأهواء البشر ورغباتهم.

2 - عقيدة التثليث عند النصارى:

استفاد النصارى كثيرا من خلال انفتاحهم على الحوار مع المسلمين، وتمكنوا من إعادة النظر في بعض المفاهيم المسيحية المعروفة عندهم مثل قضية التثليث[14] التي كانت أهم معتقداتهم الفاسدة.

لقد بين القرآن الكريم نهي المولى عز وجل للنصارى عن القول بالتثليث وذلك في الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[15].

وقوله تعالى:﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[16]

لقد بقيت قضية التثليث راسخة عند النصارى وجوهر عقيدتهم حتى في ظل الوجود الإسلامي بالأندلس؛ فقد ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة تسبب إلى ما حرم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتابا في تفضيل التثليث على التوحيد[17].

ومن أهم الانتقادات التي وجهها ابن حزم للنصارى قوله: « فوجدنا شريعة النصارى في غاية الفساد لوجوه: أحدهما قولهم بخلاف التوحيد في الإبن والأب وروح القدس، والثاني لفساد نقلهم لرجوعه إلى ثلاثة فقط، وهم مرقش ولوقا ويوحنا الناقل عن متى؛ فوضح عليهم الكذب وأن أناجيلهم متضادة، ظاهرة الكذب في أخبارها؛ فبطلت الثقة بنقلهم، مع أنها شريعة معمولة من أساقفتهم وملوكهم بإقرارهم، وما كان هكذا؛ فالأخذ به لا يجوز؛ إذ لا يجوز في هذا المكان إلا ما صحّ أنه جاء به المرسل عن الله تعالى »[18].

أثبت ابن حزم فساد عقيدة التثليث عند النصارى، وبين في مساجلاته أنها تتناقض مع التوحيد الصحيح بأدلة كثيرة، كمحاولته معرفة الأقانيم[19] ببعضها حيث سألهم عن علاقة

الكلمة بالأب والابن والروح القدس « ويقال لهم: الكلمة هي الأب أو الإبن أو روح القدس؟ أم شيء رابع؟ فإن قالوا شيء رابع؛ فقد خرجوا عن التثليث إلى التربيع، وإن قالوا إنها أحد الثلاثة سئلوا عن الدليل على ذلك؛ إذ العوى[20] لا يعجز عنها أحد »[21].

وتساءل ابن حزم إذا كانت الأقانيم الثلاثة التي قال بها النصارى شيئا واحد فبأي معنى يسمون أحدهم أبا والآخر ابنا والثالث روح القدس؟ وهم يقولون: « إن الثلاثة واحد، وإن كل واحد منهما هو الآخر، فالأب هو الابن، والابن هو الأب، وهما روح القدس، وليس روح القدس سواهما، وهذا هو عين التخليط »[22].

هذا وقد تصدى المسلمون في الأندلس لأطروحات النصارى، ودعوا للتحذير من فساد العقيدة النصرانية وتبيان زيغها وضلالها، وكان للشعراء مشاركة في هذا الجهد.

وفي هذا الصدد نشير إلى الشاعر عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد المرواني (المتوفى سنة 516هـ/1122م) الذي تعرض في أرجوزته المشهورة في التاريخ للعقيدة النصرانية، وبخاصة لقضية التثليث التي شكلت مجالا لسجالات بين النصارى والمسلمين لما فيها من ضلال مبين.

يقول في معرض بيانه عن العلم والنظر فيه:

وصانعُ العالمِ فردٌ صمد ... والصنعُ لم يشركهُ فيهِ أحدُ
فصنعُ الاثنين اشتراكٌ منهما ... لا يخلوانِ من تغايرهِما
وكلُ ما زاد على اثنين كذا ... مَن خالفَ التوحيدَ فهو قد هذى
والانفرادُ غايةٌ في المدحِ ... والاشتراكُ من دواعي القَدحِ
وللنصارى القول بالتثليثِ ... أفظعُ به من موقفٍ خبيثِ
وطابقوا اليهودَ في التجسيم ... أُفٍ له من منطقٍ ذميمِ
جل الإله الفردُ عن شريكِ ... فهو ذو التقديسِ والتبريكِ[23].

كما انتقد بعض سلوكيات النصارى الفاسدة، وعلى الأخص محبتهم للابنة أو ابنة الأخ، وذلك بقوله: « ونجد النصراني قد أمن ذلك من نفسه في ابنة عمه أيضا لأنه لا يطمع منها في ذلك، ولا يأمن ذلك من نفسه في أخته من الرضاعة؛ لأنه طامع بها في شرعته »[24].

المحور الثاني: الحوار مع اليهود في الأندلس:

اليهود من الهوادة، وهي المودة أو التهود، وهي التوبة كقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[25]، أي تبنا؛ فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم لبعضهم البعض، وقيل لنسبتهم إلى (يهود) أكبر أولاد يعقوب عليه السلام[26].

وقد وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي توضح اشتقاق كلمة يهود من الفعل "هاد"، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[27].

عرف اليهود عبر العصور بأكثر من تسمية منها (عبري) و(إسرائيلي)، لكن تسمية (يهود) هي الأكثر استخداما، وبخاصة في المصادر التاريخية العربية؛ ولهذه التسمية دلالة دينية إذ تطلق على كل من يعتقد في الديانة اليهودية ويؤمن بها، ويمارس طقوسها وشعائرها؛ فيهودي نسبة إلى اليهودية، كما أن مسيحي نسبة إلى المسيحية، ومسلم نسبة إلى الإسلام، وهي إذا ذات دلالة دينية خالصة[28].

وتؤكد الآية القرآنية أنه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[29] ما يفيد بنسبة يهودي إلى اليهودية، وبالدلالة الدينية الخالصة، كون هذه الآية تنفي عن إبراهيم عليه السلام نسبته إلى اليهود أو النصارى، ولكن تثبت انتماءه إلى دين الإسلام.

لم تسلم عقائد اليهود بالأندلس من هذا الحوار الحاد؛ فقد تعرضت شريعتهم لانتقادات ابن حزم، حيث ألف كتبا في هذا المجال، ومن أبرز مصنفاته في هذا الصدد:

- رسالة في الرد على ابن النغريلة اليهودي: نشرها إحسان عباس ضمن الجزء الثالث من رسائل ابن حزم.

- كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما يحتمل التأويل[30].

- كما ألف في إطار حواره مع اليهود كتابه المسمى الفصل في الملل والأهواء والنحل[31]، ذلك الكتاب الذي يناقش فيه ابن حزم ما اشتملت عليه التوراة التي بين أيدي اليهود من تناقض وتحريف وتبديل، حيث أفرد لذلك فصلا خاصا سماه «فصل في مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة في الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة»، كما تطرق فيه أيضا إلى جوانب كثيرة من عقائد النصارى واليهود، مما يدل على سعة اطلاعه ودقة معلوماته.

يعد كتاب (الفصل) موسوعة شاملة أرخت للأديان والأهواء والملل والنحل ناقش فيها ابن حزم التوراة مبينا ما أضيف إليها من أباطيل وأكاذيب بسبب التحريف والتبديل، وقد وصف جاك ريسلر كتاب الفصل بقوله: « يعد كتابه حول الأديان والمذاهب أول بحث بين البحوث الدينية المقارنة ويكشف عن تناقضات في الحكايات التوراتية، لم تظهر في أوروبا إلا بعد خمسمائة سنة »[32].

وقد أشار ابن بسام إلى انفتاح ابن حزم على أصحاب الملل المختلفة وبخاصة اليهود بقوله: « ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود لعنهم الله ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة »[33].

ولقد كانت لابن حزم نظرة خاصة إلى اليهود؛ فقد اعتبرهم أعداء لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم، وحذر من عدم الاستكانة لهم ومن التهوين في أمرهم « لا سيما إن كان العدو من عصابة لا تحس إلا الخبث مع مهانة الظاهر فيأنس المغتر إلى الضعف البادي، وتحت ذلك الختل والختر والكيد والمكر، كاليهود الذين لا يحسنون شيئا من الحيل، ولا آتاهم الله شيئا من أسباب القوة وإنما شأنهم الغش والتخابث والسرقة على التطاول والخضوع مع شدة العداوة لله تعالى ولرسولهﷺ »[34].

1 - نماذج من نقد ابن حزم للتوراة:

التوراة هي كلمة عبرانية تعني الشريعة أو الناموس، ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده، ويسمونها (توراة) أو (بنتاتوك) نسبة إلى (بنتا)، وهي كلمة يونانية تعني خمسة أي الأسفار الخمسة[35]، وهذه الأسفار هي:

- **سفر التكوين:** يتحدث عن خلق السماوات والأرض وآدم والأنبياء بعده إلى موت يوسف عليه السلام.

- **سفر الخروج:** يتحدث عن قصة بني إسرائيل من بعد موت يوسف عليه السلام إلى خروجهم من مصر، وما حدث لهم بعد الخروج مع موسى عليه السلام.

- **سفر اللاويين:** وهو نسبة إلى لاوى بن يعقوب الذي من نسله موسى وهارون عليهما السلام، وأولاد هارون هم الذين فيهم الكهانة أي القيام بالأمور الدينية، وهم المكلفون بالمحافظة على الشريعة وتعليمها للناس، ويتضمن هذا السفر أمورا تتعلق بهم وببعض الشعائر الدينية الأخرى.

- **سفر العدد:** وهو معني بعد بني إسرائيل، ويتضمن توجيهات وحوادث حدثت لبني إسرائيل بعد الخروج.

- **سفر التثنية:** ويعني تكرير الشريعة، وإعادة الأوامر والنواهي عليهم مرة أخرى، وينتهي هذا السفر بذكر موت موسى عليه السلام وقبره[36].

لقد حاول ابن حزم كشف ما طرأ على عقائد اليهود من تغيير وتحريف، ويقول في ذلك: «وجدنا اليهود أيضا شريعتهم في غاية الفساد؛ لأنها راجعة إلى كتب ضائعة النقل، لم ينقلها من أول كونها إلى فشوها عندهم كافة، بل دخلها التغيير والإتلاف وانقطاع حكمها ونقلها،

لكفرهم بها أيام دولتهم ثم بعدها، واتصال ذلك فيهم المئين من السنين، مع عظيم ما فيها من كذب الأخبار، مع بطلان شرائعهم التي أمروا بها بإقرارهم، وامتناع إقامتها، وما كان هكذا فليس هو من عند الله بل هو باطل مفتعل، إذ لا سبيل إلى العمل بالواجب عندهم»[37].

تعرضت التوراة للكثير من العبث والتبديل والتحريف، فاليهود انحرفوا انحرافات خطيرة في دينهم؛ فكفروا وأعرضوا عن دين الله، ولهذا لا يمكن أن تسلم التوراة من التحريف والتبديل عن قصد وإصرار، ويمكن الاستدلال بالقرآن الكريم على قيام اليهود بالتغيير والتبديل والافتراء على الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[38].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[39].

ومن ما لا شك فيه أن التوراة الموجودة اليوم هي غير التوراة التي أنزلت على نبي الله موسى عليه السلام؛ فهناك من التناقضات في نصوصها ما أثبته علماء الإسلام قديما، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[40].

كما بين القرآن الكريم؛ فقد طالت التوراة يد التحريف؛ لأن الله تبارك وتعالى أوكل حفظها إلى أهلها مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[41].

ويشير السموأل إلى أن علماء اليهود وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم لا يعتقد أحد منهم البتة أنها التوراة المنزلة على نبي الله موسى عليه السلام؛ لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل ولم يبثها فيهم، وإنما سلمها إلى أبناء عشيرته أبناء لاوي[42].

وفي هذا الصدد نشير إلى ما قام به الفقيه الأندلسي ابن حزم من ردود مشفوعة بالأدلة النقلية والعقلية بيّن فيها تناقضات التوراة بفعل ما أدخل على متنها من زيادة ونقصان.

2- تناقض التوراة في قصة تجلي الله تعالى لإبراهيم:

حاول ابن حزم إثبات أن الكتاب المقدس لدى اليهود (التوراة) فاقد لعنصر التواتر في نقله، وأنه لم يسلم من الخطأ والغلط لدخول يد التحريف عليه على مر العصور والأزمنة. ويستدل بالنصوص التي وردت في الكتاب نفسه؛ فقد تضمنت الكثير من المُحال الشرعي والعقلي أو لتناقض النصوص مما يشهد على عدم نسبة هذا الكتاب كله إلى الله تبارك وتعالى.

لقد اعتمد ابن حزم على القرآن الكريم في تبيان وإظهار تناقض التوراة؛ فقد وردت قصة في التوراة تقول: « وتجلى الله لإبراهيم عند بلاطات ممرا، وهو جالس عند باب الخباء عند حمى النهار، ورفع عينيه ونظر فإذا بثلاثة نفر وقوف أمامه؛ فنظر وركض لاستقبالهم عند باب الخباء وسجد على الأرض وقال: يا سيدي إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك؛ فلا تتجاوز عبدك ليؤخذ قليل من ماء، واغسلوا أرجلكم واستندوا تحت الشجرة، وأقدم لكم كسرة من الخبز تشتد بها قلوبكم وبعد ذلك تمضون، فمن أجل ذلك مررتم على عبدكم؛ فقالوا: اصنع كما قلت فأسرع إبراهيم إلى الخباء إلى سارة، وقال لها اصنعي ثلاث صيعان من دقيق سميد، اعجنيه واصنعي خبز ملة، وحضر إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلا رخيصا سمينا ودفعه للغلام واستعجل بإصلاحه، وأخذ سمنا ولبنا، والعجل الذي صنعوه وقدم بين أيديهم وهو واقف عليهم تحت الشجرة وقال: كلوا، قال أبو محمد رضي الله عنه: في هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره »[43].

استطاع ابن حزم أن يكشف التناقض الذي عبرت عنه هذه القصة في التوراة وذلك في النقاط التاية:

- من المحال والكذب أن يخبر إبراهيم بأن الله تعالى تجلى له، وإنما تجلى له ثلاثة من الملائكة.
- إنه يخاطب الملائكة بخطاب الواحد.
- سجود إبراهيم للملائكة وذلك باطل.
- خطابه لهم بأنه عبدهم؛ فإن كان المخاطب بذلك هو الله تعالى وهو المتجلى له؛ فقد عادت البلية، وإن كان المخاطبون بذلك الملائكة؛ فحاشى لله أن يخاطب بالعبودية غير الله تعالى مخلوقا مثله[44]، وهذا محال من نبي.
- قوله يأخذه قليل من ماء ويغسل أرجلكم، وأقدم كسرة من الخبز تشتد بها قلوبكم، وهذا محال بحق الله والملائكة؛ وهذه على كل حال كذبة باردة سمجة.
- إخباره خبرا عن الله تعالى أو عن الملائكة أنهم أكلوا الخبز والشوى والسمن واللبن، وحاشاه أن يكون هذا خبرا عن الله تعالى ولا عن الملائكة.
- إقرارهم بأن إبراهيم أطعم الملائكة اللحم واللبن والسمن معا، والربانيون منهم يحرمون هذا اليوم[45].

ويضيف ابن حزم قائلا: « أين هذا الكذب البارد الفاضح الذي يشبه عقول اليهود المصدقين به؟ من الحق المنير الواضح عليه ضياء اليقين من قول الله عز وجل في هذه القصة

ذاتها: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾[46] »[47].

وقد أثبت القرآن الكريم بأن من جاء إبراهيم عليه السلام هم ملائكة كرام على صورة البشر، إلا أنهم يبقون محتفظين بخصائصهم كملائكة لا يأكلون، وأنهم أبلغوا إبراهيم بأنهم مرسلون إلى قوم لوط.

ويستدل من ذلك على أن الكتب السماوية لا يمكن أن تتعارض في فحوى قصة واحدة ومضمونها؛ فقد بين القرآن الكريم أن الرجال الثلاثة هم ملائكة مرسلون إلى قوم لوط. وهكذا نتبين حجم التحريف الذي أصاب التوراة وعبث يد اليهود بها سواء في نقلها أوترجمتها أو حفظها.

3- التشبيه والتجسيم في التوراة:

اختلفت نظرة اليهود إلى الله تبارك وتعالى عن ما كان يعتقده المسلمون؛ فقد كان الاعتقاد السائد عند المسلمين الذي يتمثل في التفكر في خلق الله وعدم التفكر في ذاته تعالى، بينما كان اليهود يفكرون في ذاته عز وجل؛ فيشبهونه بصفات البشر، كما يجسمونه تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

تطرق ابن حزم من خلال نقده للتوراة إلى نظرة اليهود للذات الإلهية موضحا الخلل في عقيدتهم تجاهها، وذلك من خلال التشبيه والتجسيم حيث يعرض لما أصاب التوراة من التحريف والتبديل.

آ- التشبيه: سعى اليهود من خلال تحريفهم للتوراة إلى وصف الله عز وجل بصفات فيها تشبيه الخالق بالإنسان ذي الجوارح بما ينافي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[48]، وهو ما ينفي الكيفية عن صفات الله تعالى.

وقد تحدث القرآن الكريم عن افتراء اليهود وكذبهم على الله تعالى، ورد على أقوالهم المخزية؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[49].

يشير ابن حزم إلى تشبيه اليهود الخالق بالمخلوق اعتمادا على توراتهم كما يزعمون « قال الله تعالى: أصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا، قال أبو محمد (رضي الله عنه): ولم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق، كما تقول هذا عمل الله، وتقول للقرد والقبيح والحسن هذه صورة الله، أي

تصوير الله، والصفة التي انفرد بملكها وخلقها، لكن قوله كشبهنا منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله عز وجل ولا بد ضرورة، وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل؛ إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبيه »[50].

ويضيف ابن حزم: « وقال الله هذا آدم قد صار كواحد منا معرفة في الخير والشر والآن كي لا يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الدهر فطرده الله من جنات عدن، قال أبو محمد (رضي الله عنه): حكايتهم عن الله تعالى هذا آدم قد صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد، ولقد أدى هذا القول الخبيث المفترى كثيرا من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذي خلق آدم لم يكن إلا خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم، وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فعرف الخير والشر، ثم أكل من شجرة الحياة؛ فصار إلها من جملة الآلهة، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق، ونحمده؛ إذ هدانا للملة الزاهرة الواضحة التي تشهد سلامتها من كل دخل بأنها من عند الله تعالى »[51].

ب- **التجسيم:** سعى اليهود بافتراءاتهم إلى تجسيم الله تبارك وتعالى بأن جعلوا لله صورة وتشبيها، والله منزل عن النظائر والأشباه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وقد تعقب ابن حزم خروج اليهود عن الحق واتباعهم الباطل والهوى ورد عليهم، وأثبت التناقض والتلاعب في كتبهم.

يشير ابن حزم في كتابه (الفصل) إلى قيام اليهود بتشبيه الذات الإلهية بصفات البشر؛ فقد قالوا: في التوراة حسب زعمهم: « إن الله عز وجل قال لبني إسرائيل لقد رأيتموني كلكم من السماء، فلا تتخذوا معي آلهة الفضة، ثم قال بعد ذلك: ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من المشايخ، ونظروا إلى إله إسرائيل، وتحت رجليه كلبنة من زمرد فيروزي وكسماء صافية، ولم يمد الرب يده إلى خيار بني إسرائيل الذين نظروا إليه وأكلوا وشربوا وقال بمقربة من ذلك: وكان منظر عظمة السيد كنار آكلة في قرن الجبل يراه جماعة من بني إسرائيل، قال أبو محمد «رضي الله عنه»: هذا تجسيم لا شك فيه، وتشبيه لا خفاء به »[52].

المحور الثالث: حوار ابن حزم مع ابن النغريلة اليهودي:

لقد أبدى اليهود عداءهم الشديد للإسلام منذ بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فحاول اليهود بكل السبل إفساد عقيدة المسلمين وذلك مصداقا لقوله وتبارك وتعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾[53].

وقد بين القرآن الكريم جوانب من تآمر اليهود على النبي والمسلمين وتحالفهم مع الكافرين في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا

كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[54].

لقد سعى الإسلام إلى نقض الكثير من المفاهيم والعقائد الفاسدة لدى اليهود دون أن ينكر عليهم أنهم أصحاب رسالة سماوية وكتاب منزل من عند الله هو التوراة، أنزله على نبيه موسى بن عمران عليه السلام.

ولا جدال في أن اليهود حرفوا شريعة الله؛ فأدخلوا عليها الكثير من الزيادة والنقصان؛ فبدلوا وغيروا تماشيا مع رغباتهم وأهوائهم، ولهذا وجد ابن حزم وغيره مجالا لنقد التوراة وإبطال التحريف الذي طرأ عليها والعودة إلى الشريعة الحقة.

كما كان القصد من الحوار الاقتداء بالقرآن الكريم في دعوة المخالفين إلى الإسلام امتثالا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[55].

عاش يهود الأندلس في جو من الحرية والتسامح لم يكونوا يحلمون به من قبل، فما كان منهم إلا أن استغلوا مناصبهم ومكانتهم للكشف عن حقدهم وعدائهم للإسلام وأهله، على الرغم من إحسان المسلمين إليهم وتقريبهم.

وقد ساعدت اليهود إجادتهم اللغة العربية في الجدل المثير بينهم وبين المسلمين في الأندلس، ومن خلال هذا الصراع الذي ظهر في الأندلس برز كبار المتخاصمين والمتحاورين في القضايا الدينية، وأبرز هذه الخصومات تلك المناظرات التي دارت بين ابن حزم و اسماعيل بن النغريلة، فمن جانب المسلمين كان ابن حزم الذي بلغت شهرته الآفاق في هذا الميدان، ويقابله من اليهود أبرز علمائهم وهو اسماعيل بن النغريلة الذي طعن بالملل، وألف كتابا في الرد على ابن حزم، وجاهر في الطعن على ملة الإسلام[56]؛ فقد كان لابن حزم حوار ديني عنيف مع العالم اليهودي إسماعيل بن النغريلة الذي تعمق في الثقافة الإسلامية، وتمكن من السيطرة على اللغة العربية بوصفها أهم أدوات المناقشة والجدل في مجال الأديان.

وكتب ابن حزم رسالة في الرد على التهم والتناقضات التي حاول ابن النغريلة أن يلصقها بالقرآن الكريم، ومن ما قاله ابن حزم في رسالته: « وبعد؛ فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله، وذوبت كبده ببغضه الرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة[57] الزنادقة المستسرّين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي استمرت لعنة الله على المرتسمين بها، واستقر غضبه عز وجل على المنتمين إليها، أطلق الأشر لسانه، وأرخى البطر عنانه، واستشمخت

لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة، فألف كتابا قصد فيه، بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن...»[58].

ويختم ابن حزم رسالته الطريفة بقوله: « أوردنا في هذا الكتاب من شنعهم أشياء تقشعر منها الجلود، ولولا أن الله تعالى نص علينا من كفرهم ما نص كقوله تعالى عنهم: إنهم قالوا عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وأن الله فقير ونحن أغنياء، لما استجزنا ذكر ما يقولون لشنعته وفظاعته، ولكننا اقتدينا بكتاب الله عز وجل في بيان كفرهم، والتحذير منهم »[59].

وقد حوت هذه الرسالة ردودا قاسية مشفوعة بالأدلة من القرآن الكريم على كل ما أورده ابن النغرلة في كتابه من مزاعم ضد الإسلام والقرآن.

ولا يخفى ما لهذا الحوار الذي تصدره ابن حزم من أهمية في الدفاع عن الإسلام، بالإضافة إلى كونه وسيلة مهمة من وسائل التعريف به والدعوة إليه، ونافذة يمكن من خلالها الإطلالة على الآخر، ومعرفة نظرته لنفسه وللإسلام.

بلغت الجرأة بابن النغريلة إلى الاعتراض على القرآن الكريم، وقد أورد له ابن حزم عدة اعتراضات على القرآن الكريم حاول من خلالها إلصاق شبهة التناقض عليه.

ومن ذلك اعتراضه على قول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾[60]. وقال: كيف يكون مباركا وهو يهدم البناء ويهلك كثيرا من الحيوان، ويضيف ابن حزم: « وليت شعري أما درى هذا الجاهل أنه لولا شرب الماء لم يكن في الأرض حيوان أصلا لا إنسان ولا ما سواه، وأن عناصر جميع المياه الظاهرة على وجه الأرض والمختزنة في أعماقها إنما هي من مواد القطر النازل من السماء؟ »[61].

لم يقتصر الحوار بين ابن حزم وابن النغريلة على ما ورد في رسالة ابن حزم للرد على ابن النغريلة، فقد أورد في كتابه (الفصل) مناظرة شفهية جرت بينه وإسماعيل بن النغريلة يتلخص مضمونها في أن ابن حزم اعترض على ما تنسبه التوراة من كذب لإبراهيم عليه السلام، حين قال عن سارة زوجته إنها أخته، وبذلك يكون اليهود قد نسبوا إلى إبراهيم أنه تزوج أخته، وقد تهرب ابن النغريلة من نقد ابن حزم لقوله له بأن لفظة "أخت" تدل في لغتهم العبرية على الأخت والقريبة، ولكن ابن حزم امتنع عن صرف هذه اللفظة بهذا المعنى عندما قال: « يمنع صرف هذه اللفظة إلى القريبة هاهنا قوله: لكن ليست من أمي وإنما بنت أبي، فوجب أنه أراد الأخت بنت الأب، وأقل ما في هذا إثبات النسخ الذي تفرون منه فخلط ولم يأت بشيء »[62].

لقد تصدر ابن حزم الحوار مع اليهود في الأندلس حيث تعرض لكتابهم المقدس (التوراة) ؛ فانتقد التحريف والتبديل الذي تعرض له من قبل أحبار اليهود مستدلا بالقرآن الكريم وبتناقضاتهم التي بدت من خلال أباطيلهم وافترائهم على الله تبارك وتعالى؛ وقد بين جوانب

من عقائدهم الفاسدة، وإعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل والهوى، ورد عليهم وأثبت التناقض والتلاعب في كتبهم.

كما كان لابن حزم أيضا؛ حوار مع العالم اليهودي إسماعيل بن النغريلة الذي تعمق في الثقافة العربية الإسلامية، من ما مكنه من توجيه بعض الانتقادات والاعتراضات على القرآن، وهو ما شكل مجالا ليرد عليه ابن حزم بالأدلة الدامغة؛ مبينا افتراءاته وتناقضاته الكثيرة، واصفا إياه بالجهل الشديد.

الخاتمة:

إن الحوار الديني بين المسلمين وأهل الذمة بالأندلس اتسم بطابع السلم الذي هو أساس التعامل الذي يدعو إليه الإسلام، على الرغم من حدة النبرة التي اتخذها الجدل؛ أحيانا بين تلك العناصر المختلفة في الدين، فقد كان ابن حزم بأسلوبه الجدلي ميالا إلى الغلظة والتشدد تجاه مخالفيه، ولا ضير في ذلك ما دام هدف الجدل والحوار إبراز كل طرف معتقداته وآرائه التي وصلت أحيانا حد التناقض.

كما كشف هذا الحوار عن الشأن الذي لعبه علماء الإسلام في الدفاع والذود عن دينهم، وكان من أهم من تصدوا لذلك العالم الأندلسي ابن حزم، والذي تقوى موقفه باطلاعه وقراءته للنصوص والكتب الدينية القديمة، من ما سمح له بنقد الأباطيل والتحريفات التي شابت التوراة والإنجيل.

- شكل هذا الحوار دليلا على احترام الإسلام للرأي الآخر المخالف في الدين والملة، بما في ذلك من قبول للتنوع والتعدد داخل المجتمع الواحد، مما أسهم في إشاعة جو من المحبة والتعايش بين مكونات المجتمع الواحد.

- رغم التباين في المبادئ والآراء بين المسلمين وأهل الذمة؛ فإن ذلك لم يقد إلى الصدام والصراع؛ ذلك أن الأديان والمعتقدات مهما اختلفت تدعو إلى حفظ أسباب الاستقرار والسلام بما يؤدي إلى إغناء الحضارة وازدهارها.

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن الحوار الديني الذي دار بين المسلمين ورعاياهم من أهل الذمة كان باللغة العربية وهو أمر بالغ الدلالة في مدى تعرب اليهود والنصارى بالأندلس الإسلامية، وكذلك مستوى انفتاحهم على الثقافة العربية الإسلامية، كما أنه ينفي كل ألوان التعصب والانعزال بين مكونات المجتمع، ويبقى السؤال المطروح: هل بإمكاننا في الوقت الحاضر الاستئناس بما قدمته الحضارة الإسلامية في الأندلس لتعبيد الطريق أمام الحوار الجاد بين أتباع الأديان والعقائد بشكل يطبعه السلم والأمان والتفاهم؟

الهوامش:

[1] أطلق مصطلح أهل الذمة على الرعايا من غير المسلمين في الدولة الإسلامية من جهة وغير المسلمين من جهة أخرى، وذلك بناء على [عقد الذمة] وهو عقد بين أهل الذمة والدولة الإسلامية عاشوا في ظله تحت حكم الإسلام، ويترتب على هذا العقد الأمان على الأرواح والأعراض والأموال في دار الإسلام، ينظر بهذا الخصوص محمد الأمين ولد أن: أهل الذمة بالأندلس في ظل الدولة الأموية، دار الأوائل، دمشق 2011، ص22 وما يليها.

[2] الآية 256، سورة البقرة.

[3] الآية 125، سورة النحل.

[4] الآية 67، سورة آل عمران.

[5] الآية 46، سورة المائدة.

[6] الخلف سعود بن عبد العزيز الخلف سعود بن عبد العزيز، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، دار أضواء السلف للنشر والتوزيع، الرياض، ط5، 1427هـ/2006م، ص197- 199.

[7] نفسه، ص201.

[8] الآية 79، سورة البقرة.

[9] الآية 173، سورة البقرة.

[10] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، مطبعة دار الجيل، بيروت، د.ت، ج1، ص 196- 197.

[11] نفسه، ج1، ص197.

[12] نفسه، ج1، ص175- 176.

[13] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص176.

[14] المراد بالتثليث عند النصارى هو إله واحد الأب والإبن والروح القدس إله واحد، وأن الأب والابن والروح القدس أقانيم يمتاز كل منهم عن الآخر منذ الأزل وإلى الأبد، وشرح عقيدة التثليث عندهم: أن وحدانية الله وحدانية حقيقية وكذلك تثليثه، فهو واحد حقيقي وهو في الوقت نفسه ثلاثة حقيقية وكذلك تثليثه، فهو واحد حقيقي وهو في الوقت نفسه ثلاثة حقيقية، حيث يتميز كل واحد من هؤلاء الثلاثة بأعمال ومميزات ليست من مميزات الآخر، وهم في نفس الوقت واحد في جوهرهم أي أن لهم ذاتا واحدة، وهم متساوون في قدرتهم ومجدهم، ووجودهم لم يسبق أحد منهم الآخر، الخلف سعود بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص270- 271.

[15] الآية 170، سورة النساء.

[16] سورة المائدة: الآية73- 74.

[17] ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2003م، ج1، ص278.

[18] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص137.

[19] الأقانيم: الأصول واحدها أقنوم، قال الجوهري وأحسبها رومية، ابن منظور محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، ج12، ص496.

[20] العوي: الذئب. عوى الكلب والذئب يعوي عيا وعواء وعوة وعوية، كلاهما نادر: لوى خطمه ثم صوت، وقيل مد صوته ولم يفصح، ابن منظور، المصدر السابق، ج15، ص107.

[21] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص119.

[22] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص112.

[23] ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص579.

[24] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص370.

[25] الآية 156، سورة الأعراف.

[26] محمد خليفة حسن أحمد: تاريخ الديانة اليهودية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998 ، ص49.

[27] الآية 69، سورة المائدة.

[28] محمد خليفة حسن أحمد، المرجع السابق، ص 29.

[29] الآية 67، سورة آل عمران.

[30] الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ص278/ ابن الخطيب لسان الدين بن محمد السلماني (ت 776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج4، ص89.

[31] ابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542هـ/1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ/1998م.، ج1، ص105 / ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص89.

[32] جاك ريسلر، الحضارة العربية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط1، 1993، ص171.

[33] ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص105.

[34] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص42.

[35] الخلف سعود بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص 76.

[36] الخلف سعود بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص76- 77.

[37] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص138.

[38] الآية 74، سورة البقرة.

[39] الآية 77، سورة آل عمران.

[40] الآية 92، سورة الأنعام.

[41] الآية 44، سورة المائدة.

[42] السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، بذل المجهود في إفحام اليهود، تقديم عبد الوهاب طويلة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1410هـ/1989م، ص125.

[43] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص219- 220.

[44] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص 220.

[45] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص221.

[46] الآية 68- 69، سورة هود.

[47] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص221.

[48] الآية 11، سورة الشورى.

[49] الآية 30، سورة التوبة.

[50] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص202- 203.

[51] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص207.

[52] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، ص255.

[53] الآية 82، سورة المائدة.

[54] الآية 78- 81، سورة المائدة.

[55] الآية 63، سورة آل عمران.

[56] ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص478.

[57] متدهرة: من الفعل دهر، الدهر: الأمد الممدود، وقيل الدهر ألف سنة. قال ابن سيده: وقد حكى فيه الدهر، بفتح الهاء. وجمع الدهر أدهر ودهور وكذلك جمع الدهر. وعامله مداهرة ودهارا، ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص292- 293. ولعل ابن حزم يقصد بقوله متدهرة صيغة تفعل من الدهر، إذ لم نعثر على كلمة متدهرة بهذه الصيغة في معاجم اللغة.

[58] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص 42.

[59] نفسه، ج3، ص70.

[60] الآية 9، سورة ق.

[61] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج3، ص56.

[62] ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج1، ص225.